الفصـــل الرابع

أثر البيئة والعقيدة على الحركة في فن النحت في بلاد ما بين النهرين

obeikandl.com

علـــي عكس العقيدة التي اتسم بها الفن المصري القديم عقيدة البعث بعد المـــوت والخلود نجد أن منطقة بلاد ما بين النهرين ترى أن الموت حقيقة واقعة فكـــل شيء به حياة له نهاية والموت قادم لا محالة حيث يدرك جلجامش مصير الإنسان المعتم ويتأكد له استحالة الظفر بالخلود فيستغرق في اليأس والواقع الذي لا مهرب منه

وإذا كانـــت بلاد ما بين النهرين تحتوي على آلهة للعبادة فتلك " العبادة مبعـــثها الخوف من شرور الحياة والأمل في أن يعيشون لدنياهم آمنين وادعين ، فلقـــد كـــانوا يعيشون لدنياهم ولا يفكرون في أخراهم بنعيمها وشقائها ، وكانت صلاتهم لآلهتهم وقرابينهم التي يقدمونها لهم هي لرفع أذى من مرض أو شر أو لطلـــب جاه ورغد ، أو للعصمة من زلة تجرهم إلى كارثة ، وهكذا كان دينهم لا يشـــغلهم بالآخرة . بل بالدنيا وحدها بنعيمها وهنائها . من أجل ذلك أفرطوا في الخضـــوع للكهـــنة الذين كان الذين كان لهم صله بالآلهة لجلب رضاها عنهم . ومن أجل ذلك كان النساء يهبن أنفسهن لخدمة المعابد ، ولا ضرر عليهن من أن يأتين كل ما يطلبه إليهن الكهنة وكانوا يقيمون لذلك حفلاً تقدم فيه القرابين "[١]

تلك كانت نظرة بلاد ما بين النهرين إلى الوجود وما وراء ذلك من آلهة فهـــو يـــرى نفســـه جـــزءاً منه لجماده وحيوانه وظواهره وقد كان لبلاد ما بين النهريـــن العديـــد من الآلهة التي لا حصر لها فكان لكل مدينة إله كما كان لكل أســـرة إلـــه ولكل مظهر من مظاهر الحياة إله وكانت المعابد لا يخلوا منها أي ركن يضم إلها ولكل معبد كهنته الخاصة وقد تخيل الناس الالهة على شكل إناس مـــثلهم خلقوا على صورتهم فهو الشيء المؤكد في هذا الكون فهو محور الوجود ومصدر السلطة العليا .

---

(١) ثـــروت عكاشـــة : تـــاريخ الفن ، الفن العراقي القديم ، العين تسمع والأذن تري ، ج٤، بيروت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بدون تاريخ ، ص٥٦.

والقـوى الكونـية هـي مبعث خوفه وفزعه ومن هذا المنطلق رأى أن يتجنـب شـرورها فجعـل إلـيها زمـام الكون ، فإذا كانت السماء بصواعقها والعواصـف بعنفها والأرض بزلازلها والماء بثوراته هي جميعاً مثار فزعه فقد جعل منها أعظم الأعضاء شأناً في مجلس الآلهة وكانت السماء بسموها وجلالها مـناط نظـر البابلي ومسرح فكره فكلما امتد إليها بصره رده حسراً ، ومن هنا كانـت هيئـته لهـا وخشيته منها ، ومن هنا كانت تسميته لها " آنو " أي الهيبة السـماوية ، وجعلهـا مقـراً لذلـك الإله المهيب الذي لولا حلوله لم تكن شيئاً مذكوراً".(١)

وكمـا ذكرت ففي ديانة بلاد ما بين النهرين آلهة لا تحصر ولا تعد فقد كـان لكل أسرة معبدها الخاص بإلهتها ونجاح دنياهم وطول العمر وكثرة المال يتمثل في الطاعة لتلك المثل العليا .

وما أكثر الآلهة في عقيدة بلاد ما بين النهرين وما أكثر الأساطير ونجد أن معظـم الأسـاطير في عقيدة بلاد ما بين النهرين تتجه إلى أصل الكون كما تتكلم عن نظامه وأخيراً تتكلم عن ظواهره تلك هي الحقائق المادية التي تنحصر فـيها الأسـطورة التي هي بالطبع الجوهر الذي يملك تلك الحياة فتفسيرها يؤدي إلـى امـتلاك زمام الأمور حيث تعينه على مواجهة مصاعب الحياة فعقائده هي قوانين لنظام الكون واستقراره طامع من خلالها في حياة هانئة مستقرة بعيداً عن الطبيعة وظواهرها المختلفة التي لا يأمن شرورها

والدين والعقيدة لهما دوراً هام في حياة شعب بلاد ما بين النهرين ، وقد تغلغـل في جميع مظاهر الحياة اليومية . والملوك كانوا ممثلون حقيقيون للآلهة فـنجد كل من يرأس الدولة يكون ملكاً وكاهناً معاً "فالملك في المجتمع السومري

---

(١) ثروت عكاشة : تاريخ الفن ، الفن العراقي القديم ، العين تسمع والأذن تري ، مرجع سبق ذكره ، ص٥٨.

يعـــد وكـــيلاً للآلهة أو للإله الرئيسي للمدينة التي يحكم فيها ولذلك كثيراً ما كان يجمع في يده السلطتين الدينية والدنيوية ، فهو القائد الأعلى في الحروب والملك وقـــت السلم ورئيس الكهنة وممثل الآلهة ووكيلهم على إدارة المعابد وممتلكاتها ورعاية شئون الرعية " (١)

ومفهـــوم الملـــك كـــان يتغير من حكم إلى حكم وعندما انتقل الحكم من سومر إلى أكاد تغير مفهوم الملك وأصبح إلها بشرياً يحكم مدة بعثية باسم الآلهة وظـــل ذلك الاعتقاد في فترة الانبعاث السومري فإذا ما جاء حكم حمورابي في الدولة البابلية رأينا الملك بشر يكلم الآلهة ويراهم ويتلقى الأوامر منهم فهو يمثل الآله في الأرض وخليفته فيها ثم "تغير مفهوم الملك في الدولة الآشورية وأصبح يعـــد الرئـــيس الأعلـــى للدولـــة والقائد للسلطات الآشورية ، وفارس الفرسان ، ومهمته لا تنحصر في إدارة الدولة وإحقاق العدل وإتمام الرفاهية بين الرعية بل من أجل إعلاء كلمة الدولة الآشورية ورفع رايتها على العالم القديم" (٢)

ومـــن هـــنا يتضـــح لنا تلك النظرة العقائدية لبلاد ما بين النهرين للكون وظواهره ونظامه من خلال الأساطير والكثير من الأفكار والأسس الفلسفية التي أثـــرت بـــلا شك على إنتاجه الفني وأعماله النحتية من تماثيل وموضوعات عن الحـــياة اليومـــية تحكـــي بلا شك ما تحتويه تلك المفاهيم من آراء وأفكار حيث تنوعـــت من خلال تلك الموضوعات وسائل التعبير بما تخدم تلك المفاهيم والتي أثـــرت بـــلا شك على التشكيل النحتي . عناصره المختلفة والتي يتضمن داخلها عنصر الحركة.

---

(١) أدوارد كييرا : كتبوا علي الطين ، رقم الطين البابلية تتحدث اليوم ، ترجمة محمود حسن ، مراجعة علي خليل ، مكتبة دار المتنبيء ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ١٩٦٤ ، ص٦٧.

(٢) المرجع السابق ، ص٩٨.

العقيدة وأثرها على الحركة في تشكيل تماثيل الملوك

الملوك في حضرة الآلهة

كمـــا ذكـــرنا فـــإن للعقـــيدة وما يتضمنها من مفاهيم لها أكبر الأثر في الأعمـــال النحتـــية فتماثيل الملوك تأثرت عند تشكيلها بالعقيدة فنرى عدة تماثيل لجوديا وأورنامو توضح الملوك في وضع العبادة ، أمام الإله العظيم في حضرة الإلـــه فهذه الفترة قد شهدت الصبغة الدينية الجديدة والتي تمثل الوسيط الذي يقدم العابد إلى الإله فقد اهتم الملوك بتسجيل دعواتهم والتماسهم إلى الآلهة والأرباب فتمـــثال جوديـــا شـــكل (٦) من الديوريت " نراه جالساً وهو مشبك اليدين بكفين رقيقيـــن ذات أصابع رشيقة وأظافر دقيقة ، وجوديا نراه وكأنه في حضرة الآلهة بملابـــس الكهـــنة التـــي تتمثل هنا في رداء يترك كتفه وذراعه الأيمن عاريتين بطـــيات قلـــيلة عـــند الإبـــط وذيل مستقيم بدون زخارف والوجه ممتلئ بعينين محدقتيـــن لوزتيـــن ، وحاجبيـــن مقوسين يبلغان أعلى الأنف ، وعلى الرغم من امـــتلاء الوجنتين فقد برزت عظامهما والفم صغير مقبول والذقن مدبب وعمامة واســـعة محببة تصل إلى منتصف الأذن – أما الجسم فهو قصير مكتنز والرقبة غليظة قصيرة.

حـــتى تكاد تلتصق الرأس بالكتفين أما القدمان فهما ضخمتان حافيتان"[١] ووضـــعية الجلســـة لهذا التمثال تدلنا على وضع العبادة فالحركة هادئة مطمئنة متوســـلة فهـــي في حضرة الآلهة وهي لا تعطينا الإحساس بالسمو والرفعة أكثر مـــن إحساسنا بالخضوع والبيئة الروحانية التي تشيع في المكان فالعيون واسعة مـــن شـــدة الانـــبهار لحضور الإله الأعظم واليدان في صلاة والمنظر العام من خلال ضخامة الخطوط الرأسية مع الأفقية تعطينا الإحساس بالهـــدوء إلا أن

---

(١) ســـيد توفيق : تاريخ الفن في الشرق الادني القديم ، مصر والعراق ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٤٦.

شـــكل (٦)

جوديا جالسا – ديوريت – متحف اللوفر(*)

(*) عن كتاب : انطوان مورتكارت : الفن في العراق القديم، ص٢١١.

obeikan.com

الابـــتعاد عـــن النسب الطبيعية أعطت لنا الإحساس بالخضوع، وعدم الإحساس بالســـمو الملكـــي والوقـــار الإلهي للملك الجالس فهو في وضع تعبد في حضرة الآلهة .

أما شكل (٧) " نرى الملك جوديا عاري الرأس في تواضع يتقدمه الرب "تينجـــيزيدا" ممســـكاً بيده لتقديمه إلى رب أعلى رتبة من الراجح أن يكون آنكي رب الماء أو ننجرسو رب المراعي ويصور الجزء الذي بقي لنا من المسلة ماء ينساب عن قرب من وكان الرب الأعلى ، ويعبر الفنان عن مكانة الرب بإلباسه الـــتاج ذا القـــرون العديدة والرداء ذا المكاسر وقد تعرت إحدى كتفيه وبد الرب "يتيجـــيزيدا" بلحية طويلة وقد ظهر خلف رأس تتين يميز شخصيه ، أما الجزء الأيمن من المسلة فيتصور رباً جالساً أو ربة جالسة على مقعد قد تكون عشتار ، وهـــذا لوجـــود رأس أســـد بجوار مقعدها ، وخلفها أحد الأرباب الثانويين الذين يتشفعون للإله"[١]

والشخصـــيات فـــي اللوحة يقفوا على مستوى واحد فالرأس تأخذ الشكل الجانبـــي والجسم يأخذ الثلاثة أرباع والوقفة هادئة فالقدم اليسرى تمتد قليلاً يغلب علـــى التكوين الجانب الزخرفي من خلال الخطوط الغائرة التي تدخل في تشكيل الملابـــس وغطاء الرأس والحركة هادئة ويغلب عليها طابع الخضوع والتعبد في حضرة الإله الأعظم

أما شكل (٨) الذي يمثل مسلة من حجر الديوريت منحوت عليها شريعة حمورابـــي وتشـــتمل هـــذه المسلة على كتابة سومرية في عدة سطور طويلة . ومرتبة في قسمين أحدهما فوق الآخر وإلى جانب هذه الكتابة " شخص الملك في وضعية جانبية وهو يتطلع إلى ناحية اليمين ، ويرفع يده اليمنى متعبداً .

---

(١) ثروت عكاشة : العين تسمع والأذن تري ، الفن العراقي ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٠٢.

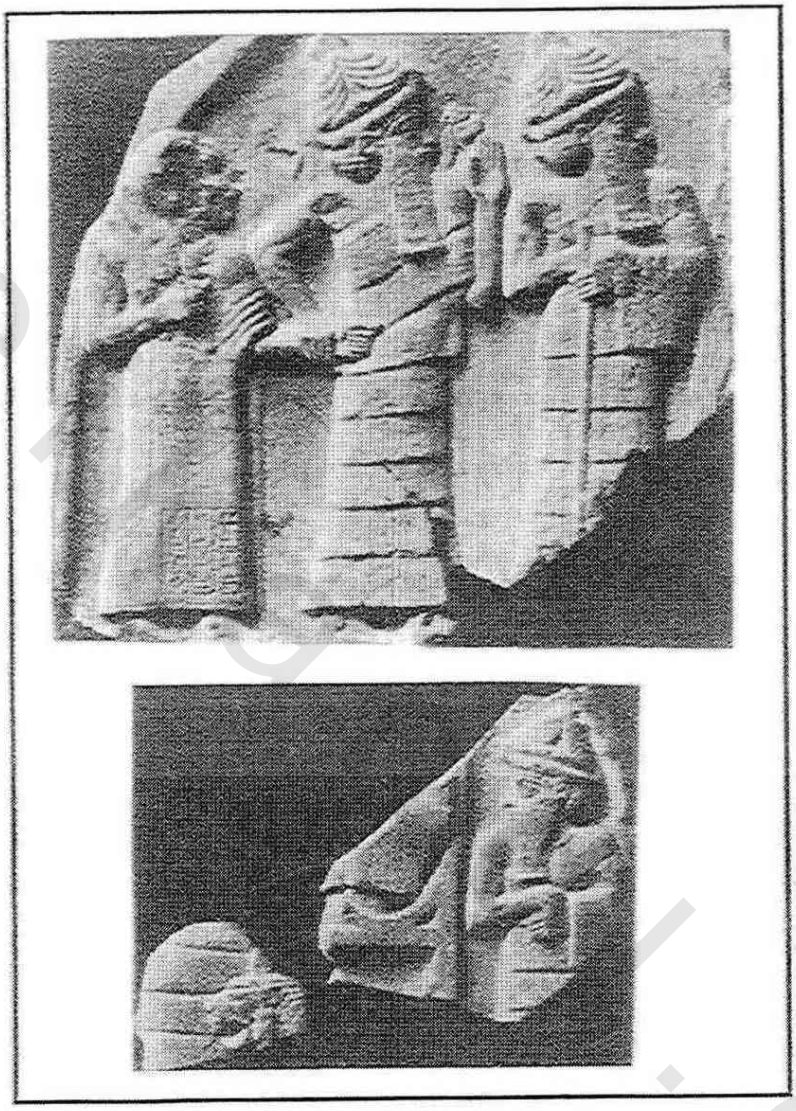

شـــكل (٧)

مسلة جوديا – فن سومري حديث – القرن ٢٢ ق.م – متحف برلين[٣]

[٣] عن كتاب : ثروت عكاشة : تاريخ الفن، الفن العراقي القديم، ص١٣٤.

شـــكل (٨)

الجزء الاعلي من لوح حمورابي – ديوريت ــ سوسة ــ

متحف اللوفر ــ ارتفاع القسم المصور ٦٥سم(*)

(*) عن كتاب : انطوان مورتكارت : الفن في العراق القديم، ص ٢٦٥.

ومـــن وجه الملك نستطيع أن نميز آثاراً خفيفة لأنف كبير صنع بشكل دقـــيق ، وقـــد قســـمت اللحية بوضوح إلى جزئين . قسم على الذقن وقسم على الصدر . وهذا الأخير يتألف من خطوط عمودية متموجة بشكل غير منتظم وهي تـــتدلى قليلاً إلى أسفل أما غطاء الرأس فهو يشبه غطاء الرأس لجوديا وهو يدع نصـــف شعر رقبته وأذنه حراً ورداء الصدر يمتد من الإبط الأيمن حتى الكتف اليسرى ويلبس في رسغه الأيمن طوقاً من لفتين سميكتين كما يضع الحاكم قلادة مزدوجة مصنوعة من لآلئ صغيرة وكبيرة في عنقه" (١)

ونســـتطيع أن نـــتلمس مقدرة النحت ونستشعر الجو الروحاني لحضور الملـــك مع الآله ليلقي عليه شريعته فالوقفة هادئة رزينة مستمعة لما يملى عليها فمعالجـــة طيات الملابس لا تنجم عن حركة الجسم والتكوين يغلب عليه الطابع الزخرفـــي مـــن خـــلال الخطـــوط والحـــزوز التـــي تدخل في تشكيل الحجوم والتفصـــيلات والحركة من خلال المعالجة لا تخدع العين بوهم وجود أبعاد ثلاثة فالفـــنان "يدرك أن عالم الإدراك الحسي الذي يتلمسه المرء بيده ويراه بعينه إنما هـــو فـــي الأساس صورة الواقع الحقيقي والذي هو الوسيلة لانعكاس الوجود ، حينـــئذ يمكـــن أن يسعى في صيغة فنه ليس إلى مجرد أن يصور رمزاً لأشياء مســـتقلة عـــن شكلها العرضي حسب بل لكي يمسك بالحقيقة في مسحة تستطيع فيها العين أن تميز الصورة "(٢)

ولكنـــنا نستشـــعر وجـــود هـــذه المحاولة في معالجة ذقن الآلهة فنرى المحاولـــة وراء بعـــد العمق في لحية الآله فالموجات الأفقية للحية الطويلة التي تـــتدلى إلـــى أسفل في شكل مستطيل مطول على صدره فهي لم تعد أفقية تماماً

---

(١) أنطون مورتكات : الفن في العراق القديم ، ترجمة وتعليق الدكتور عيسي سليمان ، سليم كريتي ، بغداد ، سلسلة الكتب الفنية بوزارة الاعلام ، ١٩٧٥ ، ص٢٦٤.

(٢) المرجع السابق ،ص ٢٦٨.

مـثلما يتطلـب المشـهد الأمامي الخاص ولكنها تمتد في الواقع بشكل منحرف طفيف من أسفل اليسار صعوداً إلى اليمين وكأنها منظورة من الجانب

الملوك في موضوع الحرب والصيد

" إن خاصية الفن التشكيلي لبلاد ما بين النهرين وخاصة الفن الآشوري هـو الـتقرب إلـى إدراك شـكل وخاصية الإنسان والسعي إلى بناء مثل عليا للـرجولة هذه المثل هي الملك المنتصر ، الملك الأسطورة الملك القهار ، الملك الـزوج القديـر ، ففي كل التكوينات سواء كانت نحتاً مدوراً أو بارزاً أكد الفنان فـي تعبـيره عـن البطش والقوة بشكل غير مألوف لإبراز العضلات وتصفيف الشـعر الطويـل والكثيف والمفلفل فالخاصية العامة للنحت البارز الجداري عند الآشـوريين هـو أن الشخصـيات المعـبر عنها تكون مصاغة بشكل متراص والفراغات شغلت برسوم إضافية وكتابات"[١]

فـالملوك كانـت تصـور في موضوعات الحياة اليومية والموضوعات الحربـية وهـي تسجل صفات القوة والشجاعة والرجولة ، خلال أشكال الجسم والأوضـاع والحـركات القوية فهذه الصفة تقاس الأوضاع التي يجب أن يكون الإنسان في حياته الدنيا حتى تعينه على تحمل مآسيها وشرورها .

نحوتـات قصـر آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) خير مثال علـى إظهار الشكل العام للملوك في هذه الموضوعات فمدخل القصر الذي يضم أشـكال الثيران المجنحة ذات الرؤوس الآدمية شكل (٩) ، وهي تهدف إلى طرد الأرواح الشـريرة ،"أما النحوتات التي تزخرف الجزء السفلي من جدران قصر آشور ناصر بال فتنقسم إلى قسمين حيث المجموعة الأولى تصور الملك والحن المجـنح فـي طقوس دينية ، بينما المجموعة الأخرى تمثل مشاهد من الحملات

---

(١) شـمس الديـن فارس : المنابع التاريخية للفن الجداري في بلاد ما بين النهرين ، مؤسسة رمزي للطباعة ، بغداد ، ١٩٩٤ ، ص٢٧.

الحربـية ورحلاتـه للصـيد ، ومع أن المجموعة الأولى تتضمن النحت أعلى الشخصـيات فـي منتصف اللوح إلا أن النحوتات في المجموعة الثابتة موجودة علـى الشـرائط البارزة التي تقسم المشاهد إلى مستويات وبخلاف الاختلاف في التكويـنات ، إلا أن النحوتات ذات المشاهد الدينية تصور مشهد واحد لكل لوح بيـنما اللـوح الروائـي يـتلازم مـع مشـاهد عديدة على مستويات مختلفة ، والمجموعـتان تختلف من حيث الأسلوب في المجموعة الأولى توضح الخطوط والمنحنيات ، والتقسيمات الداخلية ، وهو الجو العام المستعار من التماثيل الدينية أمـا المشاهد الروائية فإن الخطوط تصبح رقيقة وحركات الشخصيات تبدو حرة والمشـاهد حـية وهـي تصور الحروب والحصار والعروض الظافرة للعربات والأسـرى ومشـاهد الجـنود التي تجتاز النهر والتي تعتمد على ثراء التفاصيل والعناية بالتكوين وعند وجود الملك في التكوين فإن الشخصيات المحيطة تصبح جـامدة كمـا أن المشاهد الحيوانية تصور الحيوانات التي تبدو حية ومستقلة عن الصيادين"[١]

فـنرى فـي الجـزء العلوي الملك آشور ناصر بالشكل (١٠) يصطاد الأسـود (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) ارتفـاع ٩٣سم والملك هنا يصور وهو يرمي أحد السهام على الأسد والمشهد هنا نراه متحرك ومتحرر عن المشاهد الدينية والملك هنا يرمز إلى الخير الذي يهزم قوى الشر المتمثلة في الأسود.

فموضـوع الصـيد كان يعبر عن قوة الملك وبطشه وكان "يمارس في الفـترات التـي تمـتاز بالهدوء العسكري التي كان يحل محلها قنص الحيوانات المفترسـة بوصـفه هواية رجولية وهنا فإن صيد الأسود في قصر آشور ناصر بـال يعد أشهر هذه الأعمال حيث يبرز الكثير من الخصائص المدهشة كالتكوين الدرامي والملاحظة الدقيقة لخصائص الشكل والإشارة والمعالجة الحية للحدث

---

(1) Gemain Bazin : A concise History of World Sculpture Alpine fine ArtCollection LTD Publishers of Fine Art Books – New york -1981, -P 46

شـــــكل (٩)

تمثّال من الرخام لثور مجنح ذي رأس بشري (لامسو) –

نمرود – ارتفاع ٣,٢٥م(*).

(*) Giovanni Garbini, P. 46.

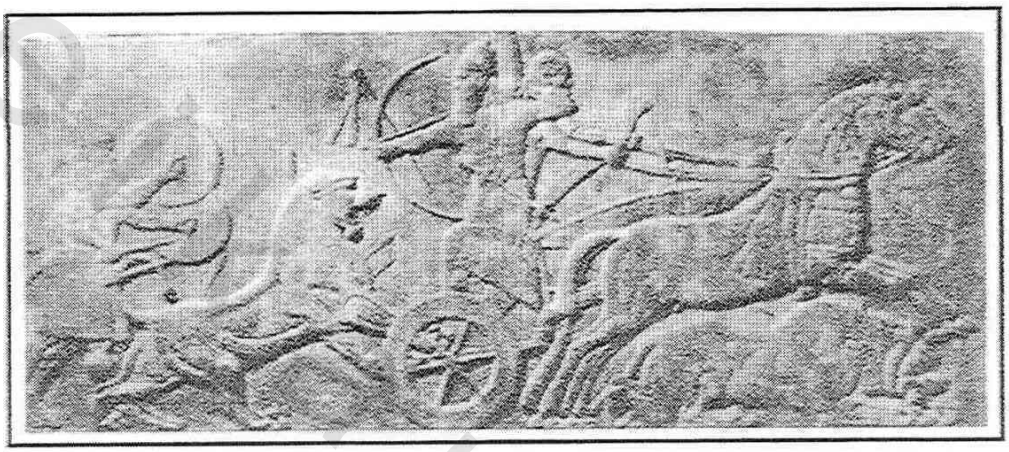

شـــــكل (١٠)

آشور ناصر بال يصطاد الاسود – نحت بارز – رخام – نمرود –

الارتفاع ٩٥سم – لندن – متحف البريطاني(*)

(*) Gemain Bazin, P. 44.

العنـــيف وتمـــيزها البيـــئة الصـــحراوية التـــي جرت فيها الأحداث تمثل أعظم الإنجـــازات الفنـــية في معالجة مشهد طبيعي يخلو من الملامح وذلك من خلال المسافة المحسوبة بين الأشكال"(١)

فـــي مشهد صيد الأسود في قصر آشور ناصر بال "تراه يتسم بالحيوية الشـــديدة والحـــركة الفعلية المتحررة من خلال الالتفاتة العنيفة للملك وهو يستعد لضرب الأسد الجريح والذي يستعد لشن هجوماً ضارياً "(٢)

وتلك المشاهد التي تعبر عن الحركة الدائبة والمتحررة والتي كانت تعبر عـــن مـــا تملـــيه العقائد والمفاهيم الاجتماعية التي كانت سائدة في هذا المجتمع الدنـــيوي والذي كان يؤمن بالقوة والبطش ويرى ملاذه وقوته من خلال التعبير عـــن هـــذه الموضوعات نرى الموضوعات الحربية من أهم الموضوعات التي تعـــبر عن ما يتخلله هذا الشعب المحارب المغوار من آراء وأفكار فلسفية تجاه الحـــياة الدنيا شكل (١١) نحت بارز في القصر الجنوبي لآشور ناصر بال نرى القـــوة والـــبطش في "مشهد من معروضة في أربعة بلاطات جدارية غير أنه لن يـــتعذر عليـــنا أن نمـــيز التكوين الإيقاعي في هذا المشهد الحربي الكبير بقاعة العـــرش حيـــث تجري معركة كبرى بين الجنود الآشوريين معتلين مركباتهم أو صـــهوات جيادهم ضد مشاة العدو ، غير أن الحركة الرئيسية للشخوص في هذا التكويـــن الفني تنتقل في حيز عرض اللوحة _ التي هي وحدة التكوين _ متجهة مـــن اليسار إلى اليمين _ فقد قسمت المعركة إلى أربعة أحداث متشابهة ، نحتت فـــوق أربعة أجزاء متساوية من الإفريز ، فكأن تفعيلة الوزن مستمرة على حالها مع تنوع بسيط في المقاطع الطويلة والقصيرة بالإضافة إلى إمكانيـــة ضـــم

---

(١) ســـيتي لويـــد : فـــن الشرق الادني القديم ، ترجمة محمد درويش ، دار المأمون للترجمة والنشر ، ١٩٨٥ص١١٠.

(2) Helen Gardener " Art Trough The Ages" Harcourt, Broce and co., New York, 1948,P 94.

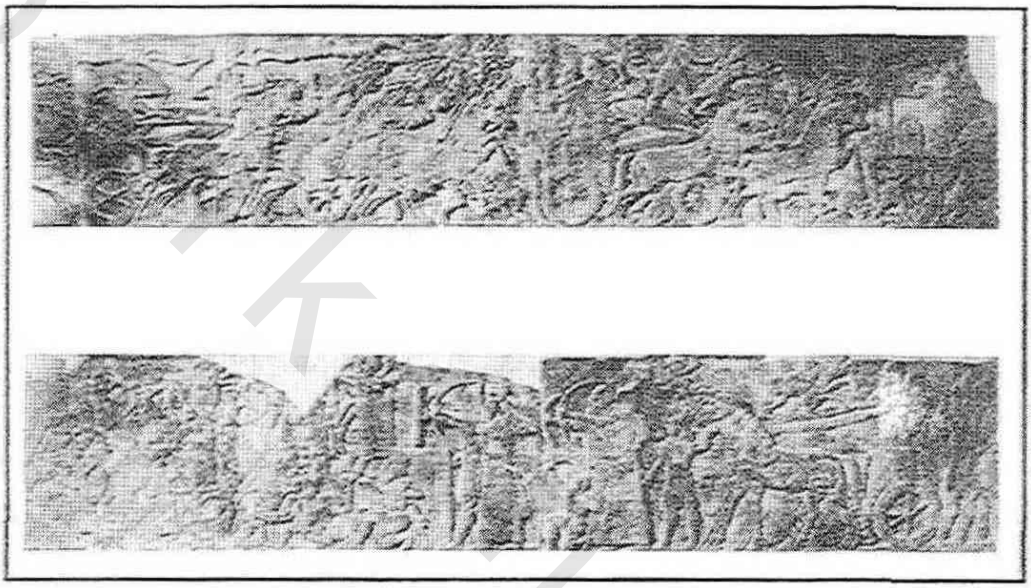

شـــــكل (١١)

آشور ناصر– بال الثاني– القصر الشمالي الغربي – نمرود–

الارتفاع ٩٨سم – لندن[٥]

---

[٥] عـــن كـــتاب : ثروت عكاشة : تاريخ الفن، الفن العراقي القديم، ص٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥.

obeikandl.com

عرضـــين من اللوحات لتصبح وحدة مستقلة ، وقد بين لنا هذا النحت مدى عناية الآشوريين بتصوير المعارك الحربية ناسبين النصر إلى ملوكهم"[١]

ومـــن هـــنا نـــرى أن العمل الفني النحتي اهتم بالبيئة المحيطة يعرضها ضمن الإطار الجغرافي والبيئة ، وصور مواكب الملك فوق عربته الحربية كما نرى صفوف الأسرى وصور المذابح والتعذيب الذي يحيق بهم واكتست جدران المعـــابد باللوحات التي سجلت المجازر الوحشية التي قصد بها إثارة الخوف في قلوب الزائرين من الأجانب .

فأعمـــال النحت التي تعبر عن الحروب ومشاهد الصيد كلها مشاهد تعبر عـــن خصـــائص هذا المجتمع الصحراوي القوي الذي يؤمن بالقوة والبطش فقد "اتصـــفوا بقسوتهم ليس فقط مع الحيوانات فقط وإنما مع أعدائهم أيضاً لذلك نرى أن الفـــنان الآشـــوري قد عبر بشكل واقعي وموضوعي عن الآلام المميتة التي تحـــس بها الحيوانات ، ولكن الخاصية الجمالية أدركها الفنان من خلال مشاعره الإنسانية تجاهها[٢]

ومـــن هنا نرى أن الحركة في تلك الأشكال الفنية جاءت فعلية قوية من خـــلال الخطوط القوية وإبراز العضلات وعلاقات الضوء مع الظل على سطح اللوحـــة بحيـــث أنها تؤكد على الحدث بعنف وشدة تعطي لذلك الإحساس بالهيبة والخـــوف مـــن تلـــك المشاهد التي تتضمن المآسي والصراع الدائم بين الإنسان وعلاقته بالبيئة التي يعيش فيها وأفكاره التي تمليها عليه عقيدته .

---

(١) ثروت عكاشة : الفن العراقي القديم ، مرجع سبق ذكره ،ص ٤٥٢.

(٢) شـــمس الدين فارس : المنابع التاريخية للفن الجداري العراقي ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩.

أثر البيئة على عنصر الحركة في فن النحت في بلاد ما بين النهرين

أولاً البيئة الجغرافية

"إن العراق *هو الاسم الحديث للبلاد التي كانت تضم قديماً بابل ، آشور تقريباً ، وربما كانت كلمة عراق ترجمة شاطئ أو بلاد الساحل وإذا ما تبادرت إلى الذهن شواطئ الأنهار التي كانت تفيض على الأراضي من حولها أدركنا أن هذه التسمية موفقة .

وتحد العراق من الشرق سلسلة جبال تفصله عن إيران (فارس) ومن الشمال سلاسل جبلية تفصله عن أرمينية وآسيا الصغرى ، ومن الغرب والجنوب البوادي والسهول ، ولذا كان في عزلة تامة عن البلاد المحيطة به . ولكنه بقعة خصبة مكنت سكانه من مزاولة الزراعة بسهولة وجعلته مهداً لحضارة عظيمة"(١)

ومعظم أرض الرافدين الجنوبية مستوية استواءاً تاماً لأنها تكونت من ترسبات الأنهار وهذا يجعل الأرض المحيطة بالأنهار قابلة للزراعة ، ولاسيما حين يحدث فيضان يخصب الأرض .

وقد تسبب هذا الموقع المتميز لأراضي الرافدين في إغراء لا يقاوم لكل الهجرات والغزوات مما أثر على طبيعة هذا الشعب فجعله شعباً محارباً صلداً يقف أمام الغزوات ليدافع عن ثرواته والهبة التي وهبها من خلال موقعه المتميز وأرضه الخصبة وقد أدى هذا الموقع والبيئة الجغرافية المتميزة إلى تأثير مباشر تحقق من خلال الميثولوجيا والأفكار الدينية التي تنشأ في المجتمع لتفسر ظواهره الطبيعية وظروف البيئة .

(*) العراق . يطلق عليها شاطئ الماء أو شاطئ البحر

(١) أدوارد كييرا : كتبوا علي الطين ، مرجع سبق ذكره ، ص٣٥-٣٧.

كما أدى هذا الموقع بين نهري دجلة والفرات إلى "ندرة الأحجار إلا أنه يوجد نوع واحد في شمال العراق هو حجر الكلسي وهو المرمر ، استخدمه الملوك الآشوريون في تزيين قصورهم وزخرفتها فقط ولكن هذا النوع من الرخام يمتاز بالرخاوة وقابلية التحلل بالماء بسهولة لذلك يتعرض أي تمثال يصنع منه لعوامل التعرية والتحلل بسرعة ، وحتى الكلس قد ندر وجوده في القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين ، ولهذا السبب اهتم البابليون القدماء اهتماماً خاصاً بالحجر الذي استوردوه من البلاد النائية فاستخدموه في صنع تماثيل آلهتهم وفي نحت أهم آثارهم فقط"(١)

"والنحات كي يتم عمله كان يعتمد على أدواته الحجرية حتى بعد استخدام البرنز والأزميل والمثقاب في سبيل إعداد الزخارف السطحية وإنتاج الفتحات التي يتم توسيعها بعد ذلك باستخدام النحت والبرنز كان نادر الاستخدام في مجال النحت"(٢)

وقد أدي استخدام خامة الرخام إلى تمكن فنان بلاد ما بين النهرين إلى الاستغراق في التفاصيل فعمل على وجود الظلال القوية بين المسطحات العريضة وإبراز العضلات وكثرة الفجوات كما أدى من خلاله التعبير عن الموضوعات العديدة فتمكن من التعبير عن موضوعات الحروب من خلال الخامة التي سهلت له الحصول على الجو العام لتلك الموضوعات من خلال الحركات العنيفة والفعلية سواء في تلك الحروب أو في موضوعات الصيد كي تعبر عن الحركات المميتة التي تحسها الحيوانات من خلال موضوعات الصيد المختلفة فالاستغراق في إبراز العضلات وتنوع سقوط الضوء والظل من خلال الحركة العنيفة للسقوط والإحساس بالألم والقسوة وبهذا استطاع الفنان من خلال هذه الخامة الحصول على تلك المؤثرات انظر شكل (١٠).

---

(١) أدوارد كيبرا : كتبوا علي الطين ، مرجع سبق ذكره ، ص١٦.

(2) Gemain Bazin : OP ,Cit , P.25

الظروف السياسية والاقتصادية وأثرها على الحركة في بلاد ما بين النهرين

لقد تعرضت بلاد ما بين النهرين لغزوات خارجية مدمرة عدة مرات عبر التاريخ القديم فكما ذكرنا فإن الموقع المتميز الذي تنفرد به هذا البقعة من الأرض وما بداخلها من ثروات وتربة صالحة للحياة أدى بها الأمر إلى التعرض إلى الغزوات الخارجية عبر العصور المختلفة .

"وكانت تلك الغزوات تأخذ شكلاً تدميرياً شاملاً ، مرة من القبائل الجبلية الهمجية الهابطة من المناطق الإيرانية "قبائل الجوتي" في العصر السومري، ومرة أخرى من الأناضول ، ومرات متعددة من الساميين سكان الجزيرة العربية، وقد كانت آخر هذه الغزوات المدمرة هو اكتساح المغول لعاصمة الدولة العباسية"(١)

وقد أدت تلك الغزوات إلى اكتساب الملوك طبيعة خاصة عرف من خلالها أنهم مقاتلون يتميزون بالقسوة والبطش حتى يتمكنوا من صد الغزاة عن أراضيهم .

واتجه الفن إلى خدمة السياسة العامة للدولة من خلال الحاكم والكهنة فبدأ الفن يعبر عن القوة ويعبر عن "النظرة التصميمية الخالصة والتي تتخلى عن كل نزعة إيهامية (illusionism) تطبيقاً صارماً ومثلما نجد في تلك الأشكال التي لها أربعة أرجل متحركة من منظرها الجانبي ورجلا ثابتة من منظرها الأمامي ، فيكون المجموع خمسة أرجل تمثل في واقع الأمر مزجاً بين حيوانين، ولقد كانت المخالفة الملموسة للقانون الطبيعي راجعة في هذه الحالة إلى دوافع عقلية خالصة فمن الواضح أن خالق هذا النوع من العمل الفني كان يريد أن

---

(١) صبحي الشاروني : فنون الحضارات الكبرى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٥٨.

يوصـــل للمشـــاهد جميع جوانب صور الموضوع التي تتميز بأنها تامة ، مكتفية بذاتها ، وكاملة من الناحية الشكلية"[١]

ورغم ذلك فهو لم يعكس نظرة مطابقة للطبيعة متحررة وهذا يرجع إلى النظام الصارم للحكم المطلق .

" كـــان الاقتصاد في بلاد ما بين النهرين يعتمد على التجارة والصناعة وبهـــذا فهو لم يعتمد على الأسلوب الهندسي الدقيق الذي يرتبط بالبيئة الزراعية إلا أنـــه ارتبط أسلوبه في العصر الآشوري بالنظرة المطابقة للطبيعة التي ترتبط باقتصاد أكثر دينامية ، فعلى الرغم من أن النحت الآشوري كان يعكس الأشكال البشـــرية التـــي تصور نفس الطريقة الصارمة التي تعكس الحكم السياسي ونفس الـــرداء الجـــامد إلا أن مشـــاهد الحـــيوانات تتميز بالروح الطبيعية ، والحيوية المثيرة، فالحيوانات صورت بشكل أقرب إلى الطبيعة مما صور الإنسان لأن كل شـــيء في ذلك العالم يدور حول القوة والبطش الذي يعتمد عليه عنصر التصميم العام"[٢].

خلاصـــة

ومـــن هـــنا يتضـــح لنا أثر العقيدة والبيئة والمفاهيم الاجتماعية على عنصر الحركة في بلاد ما بين النهرين على النقاط التالية :-

١- أول ما يلفت النظر في تماثيل الملوك في حضرة الإله هو مفهوم الحركة الهادئـــة فـــي حضرة الإله التي نراها تتسم على وضعية التمثال سواء كان جالســـاً أو واقفـــاً فهـــو يرى الإله ويتلقى الأوامر منه فهو ممثل الآلهة في الأرض والوسيط بين الإله والشعب .

---

(١) ارنولد هاوزر : الفن والمجتمع عبر التاريخ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق ، ص٦٥.

٢- اتخـــذت الحـــركة شـــكلاً خاصاً من خلال النسب غير المألوفة والغير طبيعية وحيث الشكل الهادئ لشخصية الملك وهو في حضرة الآلهة .

٣- الديناميكـــية في الحركة نراها في علاقة الملك بمظاهر الحياة اليومية في مشاهد الحروب والصيد فالحركة جاءت فعلية بما تناسب الأحداث الأرضية الماديـــة التـــي تعكس قوة الملك وبطشه من خلال النصر على الأعداء أو الأحاسيس والآلام التي تشعر بها الحيوانات الجريحة في مشاهد الصيد .

٤- الـــتحرر في الأشكال والحركات نراه في الأشكال الأسطورية من خلال الميتافيزيقـــية التـــي اعترت الأشكال بإضافة الأرجل المتحركة التي تتعدى الأربـــع أرجـــل التـــي تعكـــس للمشاهد الجوانب الكاملة للموضوع فنراها مـــتحركة تامة في مظهرها مما تؤكد على الجوانب العقائدية في أنها أشكال حية حارسة للمدنية يتسم مظهرها بالعنف والوحشية والحركة الدائبة .

obeikandl.com